

إنَّ خوف المستبدِّ من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه؛ لأنَّ خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقُّه منهم، وخوفهم ناشئ عن جهل؛ وخوفه عن عجز حقيقي فيه، وخوفهم عن توهم التخاذل فقط؛ وخوفه على فقد حياته وسلطانه، وخوفهم على لقيمات من النَّبات وعلى وطن يألّفون غيره في أيام؛ وخوفه على كلّ شيء تحت سماء ملكه، وخوفهم على حياة تعيسة فقط. كلما زاد المستبدُّ ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته وحتى من حاشيته، وأكثر ما تُختم حياة المستبدِّ بالجنون التّام. قلت: «التّام» لأنَّ المستبدَّ لا يخلو من الحمق قطّ، وإذا صادف وجود مستبدٍّ غير أحرق فيسارعه الموت قهراً إذا لم يسارعه الجنون أو العته؛ لأنَّ أكثر ما يبطش بالمستبدِّين حواشيهم؛ يرتكبون كلّ جريمة وفظيعة لحساب المستبدِّ الذي يجعلهم يمسون ويصبحون مذبولين مصروعين، يُجهدون الفكر في استطلاع ما يريد منهم فعله بدون أن يطلب أو يصرّح. فكم ينقم عليهم ويهينهم لمجرّد أنهم لا يعلمون الغيب، الأنبياء والأولياء؟ وما هؤلاء إلا أشقياء؛ أسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ! لا يعلم غيبك نبيٌّ ولا وليٌّ، فإنَّكَ اللَّهُمَّ قلت وقولك الحقّ: «فلا يظهر على غيبه أحداً» وأفضل أنبيائك يقول: «لو علمتُ الخير لاستكثرت منه». من قواعد المؤرّخين المدقّقين: إنَّ أحدهم إذا أراد الموازنة بين مستبدِّين كثيرين وتيمور مثلاً، يكتفي أن يوازن درجة ما كانا عليه من التحذّر والتحفّظ. وإذا أراد المفاضلة بين عادلين كأئو شروان وعمر الفاروق، يوازن بين مرتبتي أمنهما في قوميهما.